# أسلوب الجاحظ

للأستاذ عبد الوهاب حمودة
المدرس بكلية الآداب

« هذه هي المحاضرة التي ألقاها الاستاذ عبد الوهاب حمودة المدرس بكلية الآداب ، في أسبوع الجاحظ الذي أقامته الجامعة المصرية في الشهر الماضي بقاعة الجمعية الجغرافية الملكية ؛ ونحن ننشرها هنا احتفاء بها ، ولصلتها بمنهج الادب للسنة التوجيهية الذي ننشره

« والاستاذ حمودة من أبناء دار العلوم الذين لهم مكانة ممتازة بما يقدمون في الأدب العربي من مباحث جديدة وآراء سديدة .

« وقد كان لابناء دار العلوم في أسبوع الجاحظ هذا ، وفي أسبوع المتنبي الذي أقامته الجامعة في العام الماضي ، جولاتهم الموفقة في الكشف عن نواح جديدة في الادب العربي تذكر لهم بالثناء والتقدير . » التحرير »

أسلوب الجاحظ مرآة صافية لطبعه ، وصورة ناطقة لمزاجه ، ورسم وضّاح لألوان ثقافته .

سجّل فيه خطرات عقله ، ودوّن فيه سبحات ذهنه ، وسكب فيه مكنونَ نفسه ، وحفظ فيه أنماطَ حياته ؛ فلا تكاد تقرأ فصلا في رسالة من رسائله . إلا تمثّل لك بعينيه الجاحظتين تنظران إليك بنظرات فيها جدٌّ مشعشع بالهزل ، وحدة مشوبة بالظرف ، تحتهما إبتسامة ساخرة حلوة أحيانا ، ومريرة موجعة أحيانا أخرى

عرف الجاحظ في أسلوبه بخصائص لم يسبق إليها . وبأخرى سبقه غيره إليها : فهو في الأولى مبتدع مخترع ، وفي الثانية مقلد مُتّبع .

أما الخصائص الأولى التي له فيها فضلُ السبق وفخرُ الابتداع فهي :

## الخاصة الأولى

مزجه الحقيقةَ الجافة بالفكاهة الحلوة ، والجدَّ المسمّ بالضحك المؤنس ، والبرهان المقنعَ بالتهكم الموجع . سبب ذلك هيّن يسير :

(١) كان الجاحظ قصيرا ، جاحظ العينين ، أسود الوجه ، دميم الخلقة ، شيطانيّ المنظر ؛ وهو يعلم من نفسه كلّ هذا . ومن دأب أمثال هؤلاء — دميمى الخلقة الذين ينغمسون فى غُمار الحياة — أن تكثر فيهم الدُّعابة ، وتشيعَ فيهم الفكاهة ، لأنهم عرضة لها فى كل حين ؛ فلا بد لهم إذن من سلاح قريب يتقون به ما يصيبهم من السخرية ، ويُديرون به الفكاهةَ والدعابةَ على من يقصدهم

وما عهدنا بالمرحوم حافظ إبراهيم ولا بإمام العبد ولا بخليل نظير وأضرابهم — ببعيد . مِن كل مَن لم ينجُ من فدية الأدب التى يفرضها على أبنائه ، والتى يقول عنها بعض الكتاب : إنها حق للفن على الفنان ، يأخذه حينا من نَسله ، وحينا من حواسه وخَلْقه ، على أن يعوِّضه عنها خفة فى الروح ، وحلاوة فى النادرة ، وجمالا فى النكتة ، وحدةً فى الذهن

وهذه هى كل أركان السخرية السائغة ، وعمدُ التهكم المُسْكِت .

أتى إلى الجاحظ يوماً ثقيل فقال له : قد سمعتُ أنلك ألفَ جواب مسكت ، فعلمنى منها . قال الجاحظ : نعم . فقال له الثقيل : إذا قال لى شخص : يا ثقيل الروح ! فأىُّ شىء أقوله ؟ فقال له الجاحظ : قل له : صدقتَ يا هذا ولم تكذب !

وروَى ابنُ عساكرَ أن الجاحظ قال : رأيت جارية ببغداد فى سوق النخاسين يُنادَى عليها ، فدعوتُ بها وجعلت أقلبها . فقلت لها : ما اسمكِ ؟ قالت : مكة . قلت : الله أكبر ! قد قُرب الحج . أتأذنين أن أقبِّلَ الحجر الأسود ؟ قالت : إليكَ عنى . أولم تسمع اللهَ يقول : « لم تكونوا بالغيه إلاَّ بشِق الأنفس » ؟

وقال مرة : ما أخجلنى أحد مثلُ امرأة رأيتها فى مدينة العسكر ببغداد ، وكانت طويلةَ القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن أمازحها . فقلت : انزلى لى كلى معنا . فقالت : اصعَد أنت حتى ترى الدنيا .

هكذا كانت روح العصر : دعابة فاشية حتى فى نسائه ، وقلة مبالاةٍ مع خفةٍ فى الروح ، ولطف فى الحس ، وطلاقة فى التفكير

(ب) وكان الجاحظ يستخدم هذا النوع من التهكم لونا من ألوان الحجة ، وضربا من ضروب البرهان ، وطريقا من طرق الإقناع ؛ وذلك هو أسلوبه الذى سلكه فى رسالة « التربيع والتدوير » ؛ فإنه أراد أن يكشف القناع عن جهل أحمد بن عبد الوهاب ، ويبين غروره وطول ادعائه لأصناف العلم ، ويصور عيوبه التى انغمس فيها ، ويبدى سوءاته التى عرف بها ؛ فاتخذ لذلك أسلوب التهكم ، وطريق الهزل ؛ متفننا مبدعا ؛ فلا يكاد يخرج فى السخرية بالرجل من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، حتى يمزقه تمزيقا ، فيصغره فى عيون الناس أولا ، ثم يصغره فى عين نفسه ثانيا .

فبينما هو يسخر من آداب نفسه ، وصفات عقله ، ومحاسن علمه ؛ إذا به ينتقل إلى الاستهزاء بجماله الفاتن ، وحسنه البارع ، فيقول :

« ... وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟ وأى أمرك ليس بغاية ؛ وأى شىء منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىء يفوق شيئا أو يفوقه شىء ؟ أو يقال : لو لم يكن كذا لكان أحسن ، ولو كان كذا لكان أتم ؟

« وهل للغوانى مثل غيرك ؟ وهل للباتح رجز إلا فيك ؟ وهل يحدو الحادى إلا بذكرك ؟ »

وما هى إلا فقر حتى تتبدل الحال من وصف الجمال إلى الاستهتار والاعتذار ، ثم ينتقل إلى المعاياة بالأسئلة ، والمقايسة بالعظماء من المتقدمين ، والمعاجزة بالمعاصرين المشهورين ، على سبيل الهزء والسخرية ؛ فيقول :

« ... فياعقيد الفلك ، كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهيولى ، كيف أصبحت ؟ ويا نسر لقمان ، كيف ظهرت ؟ ويا أقدم من دوس ، ويا أسن من لبد ، حدثنى : كيف رأيت الطوفان ، ومتى كان سيل العرم ، ومذ كم مات عوج ، ومتى تبلبلت الألسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثتم فى السفينة ! وأشهد أنك تخاشن عمرو بن بحر الجاحظ وتعاقله ؛ ثم تظارفه وتطاوله ، وتغنى مع مخارق ، وتنكر فضل زلزل ، وتستجهل النظام ، وتستبرد الأصمعى ، وتبارز أبا الحسن على ... ! »

وهكذا يسير فى رسالته ، بأسلوب هو واضع أسسه ، وناسج بردته

ونرى هنا من المناسب أن نقول : إن كثيرا من المتأدبين يظنون أن ابن زيدون هو أول من استخدم الأسلوب التهكمى فى رسائله ، كما فى رسالته الهزلية ، ولكن من الحق أن ابن زيدون لم يكن مخترعا ، بل مقلدا محاكيا ؛ فالجاحظ أستاذه ، وابن زيدون تلميذه ؛ غير أن الجاحظ لم يسف فى الهجاء ولم يمض به ، بل كان قوله كله تهكما ، يضحك منه حتى المكتوب إليه ، وليس فيه من الشدة والقسوة ما يبعث فى نفس القارىء الرحمة على من كتب إليه ، أو الحنق على الكاتب له ؛ بل كل ما يرمى إليه الجاحظ أن يشرك القارىء فى ضحكه ، ويقاسمه فى سخريته

ومن أسباب جمع الجاحظ بين الجد والهزل فى أسلوبه ، حرصه على أن يفهم الناس عنه ، واحتفاله برضى العامة عليه ، وإقبالهم على قراءة ما يكتب ، ورغبتهم فى سماع ما يُلقى ، وهو العليم بطبائع الناس وغرائزهم ، وأهوائهم وأذواقهم ؛ فقصد أن ينسيهم برقة دعابته ، وحلاوة فكاهته ، إسرافه فى أسلوبه ، وإسهابه فى جِدّه ؛ وهو الذى يقول فى كتاب الحيوان ( ج ٦ ص ٦ ) : « على أنى ربما وشّحتُ وفصّلت فيه بين الجزء والجزء ، بنوادر كلام ، وطُرَف أخبار ، وغرر أشعار ، مع طرَف مضاحيك ؛ فإنى رأيت الأسماع تملُّ الأصوات المطربة ، والأغانىَ الحسنةَ ، والأوتارَ الفصيحة ، إذا طال ذلك عليها ؛ وما غايتنا من ذلك كله إلا أن تستفيدوا خيرا »

وقال فى صدر كتاب البخلاء ( ص ٥ ) : ولك فى هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تَبيُّنُ حجةٍ طريفة ، أو تعرُّفُ حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت فى ضحك منه إذا شئت ، وفى لهو إذا مَلِلت »

* * *

الخاصة الثانية :

من خصائص أسلوب الجاحظ تأثره كثيراً بأساليب الخطابة والمنطق . ومظاهر ذلك التأثر بادية فى وجوه عدة منها : التكرار الذى به يفصح عن المعنى الواحد بعدة عبارات ، وهو نفسه يرى هذا التكرارَ من خصائص الخطابة

حيث يذكر في كتابه البيان والتبيين (ص ٥٨ ج ١) :

« وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعانى عيًّا »

وهذا عينه هو الذى ذكره أرسطو فى كتاب الخطابة ( الفصل الحادى عشر من الكتاب الثالث ص ٢٣٧ ) ترجمة تيودور بكلى مع تحليل هُوبز ، تكلم أرسطو فى هذا الفصل على الفرق بين الأسلوب الكتابى والأسلوب الخطابى ، فذكر من تلك الفروق ما ترجمته :

« إن التكرار معيب فى الكتابة ، على حين هو ضرورى وخاصة من خصائص الخطابة ، لأنه فيها نوعٌ من الإسهاب ، وفى الأسلوب الكتابى تفكك الجمل وعدم ربطها سيئة من سيئات الكتاب ؛ وهو فى الخطابة حلية من حلاها ، لأنه يساعد على التمثيل فى الالقاء والإسهاب فى البيان »

ومن الغريب أنا نشاهد هاتين الخاصتين فى أسلوب الجاحظ ، فهو يكرر كثيراً ، ويفصل أحياناً إذا كان المقام مقام عاطفة وانفعال ؛ يقول مثلا فى رسالة « الحاسد والمحسود » :

« وإن كان المحسود عالماً قال الحاسد : هو مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطبُ ليل ، ومتبع نيل ، مايدرى ما حَملَ ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً وإن كنت مصيباً ؟ أو يرشدك إلى صواب وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك فى غيبه عنك ، أو قصّر فى عيبه لك ؟

« هو كالكلب الكلب ، والنمر الحرب ، والسم القشب ، والفحل القطم ، والسيل العرم ، إن مَلَكَ قتلَ وسبى ، وإن مُلِكَ عصى وبغى ، حياتك موته وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ، يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكذب فيك كل عدل مرضى ، لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ، عدوك بطانته ، وصديقك علاوته »

أليس الجاحظ فى كلامه هذا أشبه شىء بالخطباء الذين يمتد نفسُهم الخطابىُّ فتراهم يندفعون فى الكلام اندفاعاً ، فيظهر حينئذ السجع القصير الفقرات ، والجمل

المتقطعة الصلات ، شأن الخطباء إذا انهمروا كالسيل : يصبون على خصومهم صنوف الويل ؛ فهناك ترى الوثبات العاطفية ، وتسمع الرنات الموسيقية ، ويكثر التكرار ، ويشيع المترادف ، فتزداد المعانى روعة ، والألفاظ انسجاما

ولكن ما للجاحظ قد غلى مرجله فى هذه الرسالة ، رسالة الحاسد والمحسود ، وتغلبت عليه العاطفة ، وهو فى رسائله الأخرى عالم جدلى ، ومتكلم منطقى ؟ الجواب على ذلك هو أن الجاحظ نفسه تذوق مرارة الحسد من معاصريه ، وتشكى هذا الداء من مناظريه

« فقد ذكر أنه كان يؤلف الكتاب الكثيرَ المعانى ، الحسنَ النظم ، فينسبُه إلى نفسه فلا يرى الأسماعَ تُصغى اليه ، ولا الإرادات تيمم نحوه ؛ ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقل فائدة ، ثم ينحلُه عبد الله بن المقفع ، أو سهلَ ابنَ هرون ، أو غيرهما من المتقدمين ، ومَن قد طارت أسماؤهم فى المصنفين ، فيُقبلون على كتبها ، ويسارعون إلى نسخها . لا لشىء إلا لنسبتها إلى المتقدمين ، ولما يداخلُ أهلَ هذا العصر من حسدِ من هو فى عصرهم ، ومنافسته على المناقب التى يخصّ بها ويُغنىَ بتشييدها »

فهو إذا وصف الحاسد فإنما يصف الواقع ويعبر عن النفس

اسمع إليه وهو يقول فى وصفه : « وما لقيتَ حاسداً قط إلا تبين لك مكتومُه بتغير لونه ، وتخاوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإعراض عنك ، والإقبال على غيرك ، والاستثقال لحديثك ، والخلاف لرأيك ، أفلا يصح بعد هذا أن نقول : إن الجاحظ من أنصار الأدب الواقعي ؟ لأنك لا تجد فى أسلوبه مبالغة ولا احتفاء بزخرفة التشبيهات ووشى الاستعارات ، وإذا أردنا أن نتبين الفرق بين تأثر الجاحظ بخطابة أرسطو فى أسلوبه ، وبين كاتب آخرَ لم يتأثر بها . فلنقرأ ما كتبه ابن المقفع فى الحاسد أيضاً حيث يقول :

« ليكن مما تصرِفُ به الأذى والعذاب عن نفسك . ألا تكون حسوداً ؛ فإن الحسد خلق لئيم ، ومن لؤمه أنه يوكّلُ بالأدنى فالأدنى من الأقارب والأكفاء الخلطاء ، فليكن ما تقابل به الحسدَ أن تعلم أن خيرَ ما تكون حين تكون مع

من هو خير منك ؛ وأن غُنمالك أن يكون عشيرك وخليطك أفضل منك فى العلم فتقبس من علمه ، وأفضل منك فى الجاه فتصيبَ حاجتك بجاهه ، وأفضل منك فى الدين فيزدادَ صلاحُك بصلاحه . ، وهكذا .

فما أشبه ابن المقفع بحكيم يستمد من عقله حكمته ، وفيلسوف يزن أفكارَه وآراءه فى تؤدة وتروّ ؛ كأنه مرزبانٌ من مرازبة الفرس فى طيلسانه الفضفاض وقلنسوته المكوّرة

ومن مظاهر تأثر الجاحظ أيضاً بالخطابة ، شيوع الاستدلال بما يعرف فى الخطابة بالقياس المضمر. ثم بما يعرف بالتمثيل .

نجد ذلك واضحاً جلياً فى رسائل الجاحظ وأسلوب استدلاله

والقياس المضمرُ عندهم ـ كما جاء فى البصائر النصيرية ـ هو ماحذفت مقدمته الصغرى أو الكبرى أو نتيجته ؛ إما لظهورها ، وإما للاستغناء عنها . ومواد هذا القياس : المشهورات ، والمقبولات ، والمظنونات .

أما التمثيل فهو إثبات حكم جزئى لجزئى آخر لمشابهة بينهما ، وهو ما يسميه الفقهاء قياساً .

فالقياس المضمر قد عرفه الجاحظ واستخدمه فى رسائله ، والتمثيل كذلك عرفه واستخدمه فى رسائله .

أما معرفته للقياس المضمر فقد نقله الجاحظ وسماه المذهب الكلامى .

فالمذهب الكلامى فى البديع يجمع البديعيون على أنه من وضع الجاحظ وتسميته ، وقد اعترف بذلك ابنُ المعتز وابن أبى الأصبع وابن حجة وغيرهم

أقول : والمذهب الكلامى هو بعينه القياس المضمر ، إذ عرّفوه بأن يورد المتكلم كلامه على طريقة أهل الكلام ، وطريقة أهل الكلام أن تكون الحجة بعد تسليم المقدمات فيها مستلزمة للمطلوب . ولكن لا يشترط هنا الاستلزام العقلى ، بل هو مبنى على المشهورات والمظنونات ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطابية المفيدة للظن ، والمؤدية إلى الإقناع . هذا هو تعريفهم للمذهب الكلامى

الذى عرفه الجاحظ ، وهو أول من سماه ؛ غير أن الجاحظ يقول : إن المذهب الكلامى ليس منه فى القرآن شىء ؛ ووافقه ابن المعتز ، ورد عليه ابن أبى الأصبع وقال: إن القرآن مشحون به ، من ذلك قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا »

ففى هذه الآية إشارة إلى قياس استثنائى ذكرت شرطيته وحذف منه الاستثنائية والمطلوب ؛ لظهورهما . وملازمة الفساد بتعدد الآلهة من الأمور المشهورة الصادقة بحسب العرف ، وهى يكتفى بها فى الأمور الخطابية .

ومثلوا له أيضا بقوله صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيراً » وتمام الدليل أن يقال : لكنكم ضحكتم كثيراً وبكيتم قليلا فلم تعلموا ما أعلم .

إذا عرفنا ذلك ، وعرفنا أن الجاحظ استخدمه فى أسلوبه وهو ينكر وجوده فى القرآن ، فمن أين أتى به الجاحظ ؟

الجواب عن هذا السؤال سهل متى انتقلنا إلى كتاب الخطابة لأرسطو ، فوجدنا المذهب الكلامى كما عرفه الجاحظ وسماه ، هو بعينه القياس المضمر الذى ذكره أرسطو وعرفه .

وقبل أن نترجم كلام أرسطو ، نذكر أمثلة للجاحظ من رسائله فيها قياس مضمر أو مذهب كلامى على رأيه .

ذكر الجاحظ فى كتاب العثمانية :

« والحجة العظمى للقائلين بتفضيل علىّ ، قتله الأقران ، وخوضه الحروب ، وليس له فى ذلك كبير فضيلة ، لأن كثرة القتل والمشى بالسيف إلى الأقران ، لو كان من أشد المحن وأعظم الفضائل ، وكان دليلا على الرياسة والتقدم — لوجب أن يكون للزبير وأبى دجانة ومحمد بن مسلمة مالبس لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، لأنه لم يقتل بيده إلا رجلا »

ويقول أيضا فى كتاب حجج النبوة :

« ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى صاحب الدرهم ، وكان صاحب الدرهم يرى فى الدرهم ما يرى فيه صاحب السلعة ، ما اتفق بينهما شراء أبداً ، ولا بيع أبدا . . . »

ثم يقول بعد ذلك : « وإذا وقع التبايع ، وقع التراجح ، وإذا وقع التراجح ، وقع التعايش . . . » وغير ذلك مما لانريد أن نطيل فيه .

أما عبارة أرسطو فى كتاب الخطابة ، فقد قال فى الفصل الثانى من الكتاب الأول:

« إن البراهين التى تستخدم فى الخطابة تقوم على أمرين :

« الأمر الأول القياس المضمر Enthemem

« الأمر الثانى التمثيل ، والمنطق تقوم براهينه على الأقيسة أولا ، وعلى الاستقراء ثانياً .

« وما القياس المضمر إلا نوع من الاستدلال القياسى ، وما التمثيل إلا نوع من الاستدلال الاستقرائى ، غير أنه محذوف فى كليهما ما هو غير ضرورى للسامع ، وما هو زائد عن الحاجة غير لازم ؛ ومفروض أن للسامع دراية به ، كل ذلك تجنباً للإسهاب المضيع للوقت ، وإرضاء لكبرياء السامع بتركه يسد بنفسه النقص الذى حدث بحذف الأمور التى يسهل عليه فهمها وإدراكها ؛ وفى هذا تودد للسامعين ، وتحبب إلى نفوسهم . وهو باب من أبواب الإقناع الخطابى . »

هذا هو كلام أرسطو وكلام شراحه

و لماذا يكون القول بأن الجاحظ عرف كتاب الخطابة لأرسطو واسترشد به قولا غريباً ؟ ومنطق أرسطو قد عرف بين المسلمين من عهد ابن المقفع ، وكانت الخطابة جزءاً من المنطق — كما ذكر ذلك ابن خلدون ودائرة المعارف الإسلامية ، وأبو نصر الفارابى فى كتابه إحصاء العلوم . وقد ذكر الجاحظ ( صاحب المنطق ) مراراً فى كتابه الحيوان وفى كتابه البيان والتبيين . بل فى رسالته التى عنوانها الرد على النصارى ، وذكر أيضا فى كتابه الحيوان أن من العلوم التى ترجمت علم المنطق

وبعد هذا وذاك ، فهناك ظاهرة قوية تدل دلالة واضحة على تأثر الجاحظ بخطابة أرسطو ، أو على الأقل تدل على استرشاده ببعض قواعدها ، وذلك أن الجاحظ كثيراً مادعا الكتاب إلى العناية بالسامعين ، وهو المبدأ الذى يدعو

إليه أرسطو فى خطابته. ذكر ذلك الجاحظ فى البيان والتبيين ص ٣ ج ٢ ، وذكر ذلك أرسطو فى الفصل الأول من الكتاب الأول ص ٨ ؛ بل لقد غالى الجاحظ فى المبدأ ، واستحسن من الخطيب أن يسوق النادرة فى ثوبها الذى فيه رويت ، وبأسلوبها الذى به نقلت ؛ ولو كانت ملحونة مشوهة

يقول فى ص ٨١ ج ١ البيان والتبيين

« ومتى سمعت (حفظك الله) بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطغام ، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب ، أو أن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً ؛ فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أريدت له ، ويذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها »

وهنا يعترضنا سؤال محرج فى ظاهر القول ، مشكل فى بادىء الرأى ، وهو :

إذا كان ذلك كذلك . فلماذا أنكر الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين أن يكون لليونان خطابة . حيث يقول : « ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق ، وكان صاحب المنطق نفسه بكىء اللسان ، غير موصوف بالبيان ، مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعاينه وخصائصه » فللجواب عن هذا السؤال فى نظرنا نقول :

أولا : إن الجاحظ حين قال ذلك القول كان بصدد الرد على الشعوبية الذين قالوا عند طعنهم على العرب : « والخطابة شىء فى جميع الأمم ؛ فهذه يونان ورسائلها وخطبها وحكمها » فوقف الدفاع عن العرب والرد على الشعوبية ألجأه إلى أن ينكر أن فى اليونان خطابة

ثانياً : إنه لم يطلع على نصوص خطابية لليونان . وإنما اطلع على أصول وقواعد للخطابة : فهو على حق حين ينكر ما لم يره

ثالثا : إنه رمى صاحبَ المنطق بالعِىّ فى القول ؛ لأن الترجمة التى قرأها لكتبه ترجمة سقيمة فى أغلب الظن ، تدل حقاً على أن صاحبها بكىء اللسان ، وهو

نفسه قد انتقد التراجم والمترجمين فى كتاب الحيوان حيث يقول : « ومتى كان ابن البطريق وابن ناعمة وابن المقفع . مثل أرسطو ؟ ثم ما لنا لا نقف عند قول الجاحظ السابق عن أرسطو : « مع علمه بتمييز الكلام وتفصيله ، ومعانيه وخصائصه . فأين عرف الجاحظ عن أرسطو ذلك إذا لم يكن عرفه من كتاب الخطابة الذى فصل أرسطو فيه حقا الكلام تفصيلا ، وبين فيه خصائص المعانى تبيينا ، ووضح الأساليب توضيحا ؟

وهناك أدلة أخرى تقوى عندنا فكرة أن الجاحظ تأثر تأثرا قويا بخطابة أرسطو ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن كتاب البيان والتبيين صدى لتلك الخطابة ؛ لأنه ألف فى عصر لم تكن فيه إلى الخطابة حاجة ، إذ كانت سوقها قد كسدت وسوق الكتابة قد نفقت؛ فالرأى الذى أرتئيه وأطمئن إليه ، هو أن الجاحظ قد عرف أرسطو ومنطقه ، والخطابة جزء منه ، إلا أن معرفته بها غامضة مبهمة ، إذ لم تكن إلا عن قراءة لكتب أرسطو فى دكاكين الوراقين ، ثم مفارقة لها بعد ذلك ؛ هذا إلى أنه نفسه يعلن فى صراحة أن كتب المنطق وغيرها من معارف اليونان لم تترجم ترجمة صحيحة واضحة ، وأنها لو عرضت على العربى البليغ لا يفهمها حق الفهم ( ص ٤٥ ج ١ الحيوان )

« ألا ترى أن كتاب المنطق الذى قد وسم بهذا الاسم لو قرأته على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب لما فهموا أكثره »

٭٭٭

الآن وقد طال بنا السفر فلم نذكر مثالا للتمثيل الذى استخدمه الجاحظ فى رسائله ، نقول :

كان الجاحظ يستخدم التمثيل إذا أعوزه الدليل ، وضاقت عليه سبل الحجة ، وكان الموضوع فى ذاته تافهاً وهو يريد أن يرفع من شأنه ويعلى من قدره . من ذلك رسالته فى فخر السود على البيض . بديهى أن تفضيل السود على البيض ليس بالأمر الهين اليسير ، وليست براهينه طيعة قريبة المنال ، فطرفا المناظرة ليسا من درجة واحدة

هذا والجاحظ لا ننسى انه أسود وجده أسود ، فهو لا بد متنقص للبيض ، متعصب للسود ، فماذا يصنع إلا أن تسعفه مهارته الفنية فى الجدل ، وثقافته الواسعة ، وعلمه الغزير ؛ فتراه يقول :

« ... إن لقمان الحكيم منهم ، ومنهم سعيد بن جبير ، وبلال الحبشى الذى يقول فيه عمر بن الخطاب : إن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا ، وهو ثلث الإسلام ؛ ومنهم المقداد ، وهو أول من عدا به فرسه فى سبيل الله .

« وقالوا : ( أى السود ) ونحن أهول فى الصدور ، وأملأ للعيون ، كما أن المسودة أهول فى العيون وأملأ للصدور من المبيضة ، وكما أن الليل أهول من النهار ، ودهم الخيل أبهى وأقوى ، والبقر السود أحسن وأبهى ، وجلودها أنفع وأثمن وأبقى ، وكل حجر وكل جبل إذا كان اسود ، كان أصلب صلابة وأشد يبوسة ، والأسد الأسود لا يقوم له شىء ، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع ؛ والسواد ملازم للعين ، وإذا اعتلت فخيف عليها لم يكن لها دواء خير من القعود فى الظلمة وفى يد صاحبها خرقة سوداء ؛ فالسواد للأبصار ، وخير ما فى الإنسان البصر » .

فأنتم ترون أن الجاحظ فى هذه الرساله كان مشغولا برصف الأدلة ، ونحت الأمثلة ، فلم يفكر فى موسيقا الألفاظ ، ولا وزن العبارات ، لأنه يريد أن يغمر خصمه بالأدلة والأمثلة ، خشية أن يتغلب عليه ، أو أن يفلت الموضوع من يده ، لأن طرفه ضعيف وهل هناك من يفضل السود على البيض ، إلا أسود متعصب ؟

٥٥٥

ثالثا — من خصائص أسلوب الجاحظ قصر الفقرات ، واتزان العبارات ، والموسيقا والازدواج ؛ فنثر الجاحظ لا يلذ العقل وحده ، وإنما يلذ العقل والشعور والأذن ، وأكثر ما يشاهد ذلك فى رسائله الإخوانية ، أو فى مفتتح كتبه وصدر تآليفه ، وهو أحياناً يتعمد هذا الاتزان وإن لم يتكلفه .

٥٥٥

الخاصة الرابعة

الاقتنان فى الأسلوب : من خبر إلى استفهام ، ومن استفهام إلى تعجب ، ومن تعجب إلى أمر. وهذه الخاصة والتى قبلها أثر من آثار الأسلوب القرآنى ؛ قال تعالى :

« إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفَون علينا . أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتى آمنا يوم القيامة ؟ اعملوا ماشئتم ، إنه بما تعملون بصير . » خبر ، فاستفهام ، فأمر ، فخبر .

ويقول الجاحظ فى رسالة الحاسد والمحسود :

ولقد كان أخوة يوسف علماءَ حلماء ، ولدهم الأنبياء ، فخانوا العهود ، وألقوْه فى غيابَة الجب ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ؛ فبظلمهم يوسُفَ ظلموا أباهم ؛ طمعاً أن يخلوَ لهم وجهُ أبيهم ، وظنوا أن الأيامَ تُسليه ، وحبَّه لهم من بَعده عنه يلهيه ؛ فأسالوا عبرته ، وأحرقوا قلبه ، فإذا أحسستَ (رحمك الله) من صديقك بالحسد ، فأقلِلْ ما استطعت من مخالطته ، فإنهُ أعونُ الأشياء لك على مسالمته ؛ وحَصِّنْ سرَّك منه ، تسلمْ من شذى شره ، وعوائق ضُره ؛ وإياك والرغبة فى مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته .

فما هذا العَناء ، وما هذا الداء العَياء ، كأنك لم تقرأ المعوِّذة . أتطلب (ويحك) أثراً بعد عين ، أو عِطراً بعد عروس ، أو تريد أن تجتنَى عِنَباً من شوك ، أو تلتمسَ حَلَبَ لبن من حائل ؟ إنك إذن لأعيا من باقل ، وأحمقُ من الضبع . إن كنت تجهل بعد ما أعلمناك ، وتَعْوَجُّ بعد ماقوَّمناك ، وتبلَّدُ بعد ماثقفناك ؛ فنعوذ بالله من الخِذلان ، إنه لا يأتيك ، ولكنه يناديك ؛ ولا يحاكمك ، ولكنه يوازنك ، أحسن ماتكون عنده حالا ، أقل ما يراك مالا ، وأكثر ما تكون عيالا ، أعظم ما تكون ضلالا ؛ وأفرح ما يكون بك ، أقرب ماتكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ماتكون من الناس حمداً » . . .

وهنا تتغلب عليه طبيعته الساخرة المتهكمة . فيميلُ إلى الضحك والاستهزاء فيقول :

« فإذا كان الأمر على هذا ، فمجاورة الأموات ، ومخالطة الزمنَى ، والاكتنانُ بالجدران ، ومص المصران . وأكل القِردان — أهون من معاشرة مثله ، والاتصال بحبله ! »

٥٥٥

الخاصة الخامسة

من خصائص أسلوبه الاستطراد ؛ وذلك أثر من آثار اطلاعه الواسع ، وثقافته المتعددة

٥٥٥

الخاصة السادسة

استقصاؤه وتغلغله فى وصف مايُعنى بشرحه أو الاحتجاج له ؛ فهو يتتبع المعنى ويقلبه على وجوهه المختلفة ، ويَظَل يولده حتى لايترك فيه قولا لقائل

كتب إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

« . . . فإن كنتُ اجترأتُ عليك ( أصلحك الله ) فلم أجترئ إلا لأن دوامَ تغافلك عنى شبيهٌ بالإهمال ، الذى يورث الإغفال ؛ فإن كنتَ لاتهب عقابى ( أيدك الله ) لخدمة سلفت لى عندك ، فهبه لأياديك عندى ؛ فإن النعمة ، تشفع فى النقمة . وإلا تفعل ذلك لذلك . فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة . »

أما الخصائص التى يَشرَكه فيها غيره ، فهى : السهولة ، والاعتراض بمثل قوله : ( أبقاك الله ) ، ( أعزك الله ) . ثم الإسهاب ، ثم السجع ؛ لأن هذه كلها من صفات الأسلوب الكتابى فى عصر الجاحظ : نشاهدها عنده كما نشاهدها عند غيره .

وبعد فأسلوبُ الجاحظ من نوع أدب الفكر لا أدبِ الشعور والعواطف ؛ قوامه الترتيب المنطقى ، والتنسيق العقلى ، والتنويع الفكرى ؛ فهو يمهد لكل شيء ، ثم يستنبط من تلك المقدمات ؛ ثم يُردف ذلك بجمل مترادفة ؛ ليزداد المعنى وضوحاً ، وتزدادَ الفكرة بياناً . هذا فى رسائله العامة ، أما فى رسائله الإخوانية ، أو حين يخاطب الخاصة ، فتأنق وتزويق ، ونقاء للألفاظ ، وحرص على الموسيقى ، وتوازن فى الجمل ، وسلاسة فى العبارات ، وسجع قصير الفقرات ؛ فهو أديب العلماء ، وعالم الأدباء . ولنختم محاضرتنا بقبس من رسالته إلى ابراهيم بن المدبر حيث يقول :

« ماضاءَ لى نهارٌ ولا دجا ليل مذ فارقتك ، إلا وجدت الشوقَ إليك ، قد حزَّ فى كبدى ؛ والأسف عليك ، قد أسقط فى يدى ؛ والنزوعَ نحوك ، قد خان جلدى ؛ فأنا بين حشاً خافقة ، ودمعة مُهرَاقة ، ونفس قد ذبُلت بما تجاهد ، وجوانح قد بَليت بما تكابد ؛ وذكرت وأنا على فراش الارتماض ، ممنوعٌ من لذة الاغتماض ، قولَ بشار :

إذا هتف القمُرى نازعنى الهوى ... بشوق . فلم أملك دموعى من الوجد
أبى الله إلا أن يفرق بيننا ... وكنا كماء المزن شِيبَ مع الشهد
لقد كان ما بينى زماناً وبينهـا ... كما كان بين المسك والعنبر الوردى

عبد الوهاب حمودة